كتاب الشهر

تجربة إشكالية من توقيع جان نعّوم طنّوس سعيد عقل على سرير التحليل النفسي

انطلاقا من التحليل النفسي بمختلف مدارسه، يتصدى الاكاديمي والناقد اللبناني جان نعوم طنوس لمهمة جريئة ومثيرة للجدل في كتابه "سعيد عقل على سرير التحليل النفسي". يربط طفولة شاعر "رندلى" الصعبة بخيط ممتد الى قصائده، بشكل تصبح الاخيرة مرآة تعكس دواخل الشاعر الراحل النفسية

في عام 1968 اطلق الفيلسوف والناقد الادبي رولان بارت (1915 ــ 1980) نظريته الشهيرة حول "موت المؤلف" في مقال شهير له، معاكسا مدارس النقد الادبي الكلاسيكية. قامت نظرية بارت على ان المؤلف ساعة يصدر نصه ويوصله الى القارئ، يصبح الاخير وحده مَن يملك سلطة التأويل وانتاج المعنى من النص الذي بين يديه. هذه النظرية ناقضت المدرستين الرومانسية والواقعية، يوم كان المؤلف ركنا اساسيا في النص، لا يمكن تجاوز سيرته وحياته وشخصيته خلال عملية تفكيك النص وتحليله.

مناسبة هذا الحديث كتاب جديد بعنوان "سعيد عقل على سرير التحليل النفسي" ("دار الفارابي") للناقد والاكاديمي جان نعوم طنوس الذي صدرت له سابقا اعمال نقدية تصب في المنحى نفسه الذي يتخذه كتابه الجديد مثل: "التحليل النفسي لحكايات الاطفال الشعبية" و"قراءة نفسية في ادب املي نصر الله" و"ملامح الموت والحياة في شخصية الشابي وشعره" وغيرها.

"سعيد عقل على سرير التحليل النفسي" يضع احد اعظم الشعراء العرب في تاريخهم الحديث على سرير التحليل النفسي. يذهب الى سيرته، يدخل منزل طفولته، واسرار عائلته وشخصية والدته ووالده، ليربط تفاصيل ومحطات من هذه السيرة بخيط يمده الى نتاجه الادبي. دراسات كثيرة صدرت عن سعيد عقل (1911 ــ 2014) تمحصت في شعره وادبه ونتاجه وتصريحاته وشخصيته... هذه القامة التي فاضت على قرائها بعيون الشعر العربي، نراها في كتاب طنوس من زاوية مغايرة قد لا يحبذها مَن وضع صاحب "رندلى" في مرتبة الالهة. اذ ان المؤلف الذي يصرح بأنه يريد كسر الاصنام ـ اكانت سياسية او دينية او ادبية ـ يقول في المقدمة بان "هذا الكتاب قد يصدم بعض القراء (...) الذين يدفعهم الاعجاب الاعمى الى تقديس من يعجبون به، ثم رفعه الى مستوى مثال اعلى لا يخطئ (...) لما يعتمل في نفوسهم من شعور العبادة، والعبودية للزعماء، اكانوا سياسيين ام دينيين ام اهل ادب وفن. اما الراضون (...) فهم يعشقون الحقيقة مهما كانت موجعة، ففي الجرح، كما يقول الفيلسوف نيتشه، كل علامات الشفاء".

يتابع المؤلف بأنه منذ اكثر من عشرين عاما، حين امسك القلم، كان هدفه "اماطة اللثام عن المخبوء وما لا يعرف في شخصية الشاعر وانتاجه. ان استنطاق الباطن (...) هو ما ارومه في مؤلفاتي كلها".

بعد هذه المقدمة، يصبح جليا ان مؤلفنا يريد دخول بيت سعيد عقل في زحلة، وملاقاته يوم كان طفلا محاطا باب قاس وام حنون و"التعقيدات الداخلية التي عاناها الرجل، ولا سيما في اسرة غير متوازنة انعكست انعكاسا مباشرا على ارائه وشعره".

اذا، هذا الكتاب يربط بين طفولة سعيد عقل في كنف عائلة "غير متوازنة" كما قال وتجليات ذلك في قصائده وشعره، ونظرته الى المرأة والرجل والحب والشهوة والشغف والوطن وقضايا اخرى. في كل الاحوال، يمكن للقارئ ان لا يوافق على ما جاء في مضمون الكتاب، الا ان ذلك لا ينفي انه يقدم وجهة نظر مثيرة وملفتة في مقاربة قصائد صاحب "لبنان ان حكى".

يشير طنوس الى انه اعتمد في الاطلاع على سيرة سعيد عقل على "مصادر مسلم بها" مثل كتابي جان دورتال "سعيد عقل: شاعر لبناني كبير" وميشال عاصي "من ايام الضوء والظلام: سيرة ذاتية"، الى جانب اطروحة لناجي نصر بعنوان "سعيد عقل فيلسوفا".

قبل التوغل في طفولة سعيد عقل وانعكاسها على شعره، يبدأ المؤلف بدرس وجيز في علم النفس عن ان "الاسرة المتوازنة السعيدة نسبيا، العطوفة والمتفهمة، تتيح المجال للنمو النفسي للطفل (...) اما التسلط فلا يولد الا شخصيات مريضة او محبطة لا تجد مخرجا لدونيتها الا من خلال عقدة الاستعلاء والعظمة". ويشير الى انهم قلة هؤلاء الناس الذي خلعوا ثوبهم القديم فكانوا فجرا لذواتهم على حد تعبير جبران خليل جبران. على "ان الكثير من الناس ـ ولا سيما العصابيين ـ يعجزون عن التحرر من العبء الاسري، فيظنون انهم احرار، مع انهم كالادوات حدد الابوان دورها وطريقة تعاطيها".

هكذا يدخل الى سيرة سعيد عقل، وتحديدا الى بيت الطفولة، متوقفا عند التناقض الكبير بين الزوجين. فالام اديل يزبك كانت متعلمة تتقن ثلاث لغات، حساسة وعطوفة على المحتاجين، وتساعد النسوة الاميات. اما الاب شبل عقل، فكان رجلا فظا ومستبدا ومتشبثا "لم يقتصر ظلمه على الطفل سعيد، بل شمل اعضاء الاسرة كالام والاولاد (...) جو الارهاب في البيت يولد قلقا عنيفا واحساسا كبيرا بالذنب تنجم عنه عقدة النقص/ الاستعلاء".

ويذهب المؤلف الى تأثر شخصية سعيد عقل بهذا المناخ، اذ ورث عن والده عدم التكيف مع الظروف والتصلب في الرأي وانكار الوقائع وحب الشطح، الى جانب عقدة العظمة الناجمة عن استبداد الاب تعويضا عن دونية عميقة. لذا "ليس غريبا ان يقول مثلا ان لبنان وسعيد عقل هما وجها الحضارة وانه حصد شهرة وحبا اكثر من السيد المسيح". ويطرح المؤلف هنا فكرته بأن عقدة الاستعلاء عند عقل قد تكون اثرت في نظرته الى المرأة، اذ نجد في شعره ملامح سادية ومازوشية. ويتوقف ايضا عند ظاهرة في حياة سعيد عقل تتعلق بأمه ونزعته الاندماجية فيها، وصولا الى رغبته في النكوص الى الطفولة كما نقرأ في هذا البيت: "امي يا ملاكي/ يا حبي الباقي الى الابد/ ولم تزل يداك/ ارجوحتي، ولم ازل ولد".

يرى المؤلف ان "الارتداد العنيف الى الطفولة والرغبة الاندماجية في الام قد يدلان على رفض لا واع لصورة الانثى، وعلى سيادة الكبت، ونشوء رغبات نرجسية عظامية". ويدلل على ذلك ببيتين اخرين: "واذ اقول امي/ اجن بي... اطيب/ يرف فوق همي/ جناح عندليب". ويعقب المؤلف قائلا: "ان ذكر كلمة "امي" كافية ليجن الشاعر بنفسه. فهو شديد النرجسية، يعبد ذاته، ويغرم بها الى حد متطرف. وبذلك يقترن النكوص بالنرجسية والعظامية".

وفي فصل بعنوان "المجدلية والتجاذب الداخلي"، يضيء المؤلف على مطولة "المجدلية" لسعيد عقل المتعلقة بموضوع مريم المجدلية الذي استحوذ على مخيلة شعراء كثيرين عبر التاريخ امثال الياس ابو شبكة وجبران. الا ان ما لاحظه في قصائد سعيد عقل عن المجدلية، هو ذلك التذبذب بين تيارين متضادين، الجسد والروح. وبعد تحليل القصائد تحليلا نفسيا وربطها بطفولته وسيرته، يعلق: "تطرح مطولة المجدلية مسألة النزاع بين الجسد والروح من خلال تصوير مريم الخاطئة فالتائبة، ثم شخصية المسيح، رمز التسامي عن الغرائز (...) ولا ريب ان الشاعر تلاعب بالمعطيات الانجيلية، كما شاء له خياله، الى حد ان هذا النزاع المشار اليه، يعبر عن خصوصية سعيد عقل (...) ان المجدلية ويسوع من خلقه الشعري وهما يمتان بصلة الى عالمه النفسي الحافل بالتذبذب بين الطهر وما يناقضه".

كنا ذكرنا انفا عن ملامح مازوشية في شعر سعيد عقل. يخصص المؤلف فصله الخامس "العاشق المازوشي والمرأة المعبودة" للتوغل عميقا في هذا الشق. يتوقف عند قصيدة "احبك" (ديوان "رندلى") فيأخذ منها هذا البيت: "احبك في ذلة الراكع، واحيا على امل وادع". يعلق بأن المازوشية تتبدى في تحقير الذات امام صنم انثوي يتراءى كأنه المطلق، فيما يستحيل "الحب ذلا وركوعا، فضلا عن امل لا يجدي".



غلاف الكتاب.

يرى المؤلف ان قصائد سعيد عقل العذرية شديدة الايحاء بصراعاته النفسية



على هذا المنوال يروح يحلل قصائد الحب التي وصفها بأنها تنم عن مازوشية ودونية مثل: "احبك منكسر الطرف، خوف/ انفلاتك من نظر طامع/ وامسح من عبرتي في الخفاء/ فلا تقعين على دامع". يرى هنا ان "الدونية هي التي تجعل الشاعر طرفا منكسرا ودمعة ممسوحة في الخفاء، قانعا بدور مازوشي يتميز باستكانة الطفولة، بعيدا عن قوة الرجولة". ثم يذهب ابعد من ذلك، حين يعرض هذين البيتين: "وثغرك لي فلة الفل باتت/ يتيمة ذاك الشذى الماتع/ فذكر الربيع على سمعها/ حرامٌ، وذكرى الهوى الراجع". يرى المؤلف ان المازوشية اكتملت هنا بالمحرمات المتشددة الدالة على عقدة ذنب، وعندئذ يستحيل اللقاء بالحبيبة الا عن بعد.

بالعودة الى قضية تضارب الجسد والروح عند سعيد عقل، يتوقف المؤلف عند بيت "لا تقربي مني، وظلي/ فكرة لغدي جميلة" ليشير الى ان الشاعر يطلب من فتاته عدم الاقتراب منه "لتظل فكرة طاهرة في خياله". ويضيف: "لعل الفعلين المستخدمين هنا، اي النهي والامر، يشيران الى خوف الشاعر من المرأة التي قد تسبب له صراعا نفسانيا ناجما عن نزاع مرير بين الرغبة والتحريم".

امتلأ شعر سعيد عقل بالقصائد العذرية الرقيقة والمرهفة، الا ان طنوس يرى انه رغم جمال هذا الشعر، الا انه شديد الايحاء بالصراعات النفسية لدى الشاعر حتى "انها تكتمل بالمازوشية، اي بتتويج الحب بالموت" كما نرى في هذا البيت: "ظل الغد المنشود/ يسبقنا اليه الممات غيلة".

ويخلص المؤلف الى انه هكذا "تتكامل مقومات النزعة المرضية: الكبت، والخوف من الحب، ثم اشتهاء الموت، فكان الوصال لا يتم الا روحيا بعد ان تخلع النفس ثوب الجسد، وعندئذ ينتفي الصراع الناجم عن الاثمية".

كثيرة ومتشعبة عملية تحليل القصائد والدواوين في هذا الكتاب المقسم الى عشرة فصول، تضيء على محاور وملامح عديدة في شخصية سعيد عقل من بينها ظاهرة النرجسية، وعلاقته الاشكالية بالحب بالعودة ايضا الى تجاربه القليلة في هذا المجال، ولذا جاءت معظم قصائده عذرية، الى جانب ثنائية العصبية والانسانية، وغيرها من المحاور الاشكالية والمثيرة للاهتمام رغم الجدل الكبير الذي قد تشعله.

لذا، ختم جان نعوم طنوس كتابه بتنويه مفاده "لست حاقدا على سعيد عقل كما يتوهم السذج والتابعون، فقد امضيت مع بعض قصائده اوقاتا ممتعة". في كل الاحوال، الكتاب الذي ارتكز الى التحليل النفسي بمختلف مدارسه، جدير بالقراءة، وبالتوقف عند زاوية الرؤيا التي اتبعها مؤلفه. وهو لا ينتقص ذرة من قامة عبقري الشعر العربي. اكانت قصائده مرآة لسيرته ومشكلاته النفسية او لم تكن، ذلك لا ينفي انها دخلت تاريخ الشعر العربي من اوسع ابوابه.

في كل الاحوال، أليس الالم والوجع والمكابدة هي التي تولد شعرا وضاء كالشمس؟